النص6: **المجتمعات البدائية**

إن كلمة "بدائي" كما اصطلح على فهمها في الأدبيات الإناسية لا تعني بتاتا أن هذه التجمعات قد شهدت وجودا سابقا على وجود المجتمعات الأخرى أو أنها أدنى درجة منها. فالمعلومات التي نملكها تمكننا من القول إن الشعوب البدائية قد عرفت تاريخا بطول تاريخنا على الأقل. ورغم أنها لا تتمتع بدرجة من التطور مساوية لدرجة تطورنا، فقد يتفق لها، بشكل من الأشكال، أن تنم في بعض الميادين عن درجات من التطور متقدمة علينا.

بناء عليه، يستطيع المرء أن يدعي أن الذين اختاروا هذه الكلمة قد أساؤوا الاختيار، لكنها شاعت وذاعت منذ حين، ثم استقرب في اللغة بحيث صار من الصعب استبدالها بكلمة أخرى.

حسبنا إذن أن نشير إلى أن الأناسين يستعملون هذه اللفظة للدلالة على مجتمعات قليلة العدد، تحتل أرضا محدودة المجال، وتقيم صلات مجتمعية خارجية محدودة، وليس لديها بالمقارنة مع المجتمعات المتقدمة إلا تكنولوجيا وبنى اقتصادية بسيطة لا يلاحظ فيها إلا وظيفة مجتمعية قليلة التخصص. وربما كان لبعض الأناسين أن يضيفوا ببعض المواصفات الأخرى كغياب الأدبيات المكتوبة، وبالتالي الافتقاد لأية سستمة في الفن والعلم والإلهيات.

ويأخذ البعض علينا أحيانا أننا نكرس وقتا طويلا لدراسة المجتمعات البدائية. كما يقال أيضا أن من الأجدى أن نكرس هذا الوقت نفسه من أجل إيجاد حلول لمشكلات مجتمعنا بالذات. والحق أن مثل القول لا يخلو من الصحة، لكن الذي يحصل، لأسباب عديدة، أن هذه المجتمعات البدائية تسترعي منذ فترة طويلة انتباه الذين يهتمون بالمؤسسات المجتمعية، فهي، من القرن الثامن عشر، تسترعي انتباه الفلاسفة لأنها كانت توفر مثالا عما كان يفترض به أن يكون وضعية الإنسان الذي يعيش في الحالة الطبيعية فبل نشوء مؤسسة الحكم المدني. كما أنها أثارت في القرن التاسع عشر اهتمام الأناسين الذين كانوا يعتقدون أن من شأن هذه المجتمعات أن تقدم لهم مؤشرات هامة تساعدهم على تفسير نشأة المؤسسات وأصولها. وما لبث الأناسون فيما بعد أن صاروا يهتمون بها لأنها توفر المثال الحي عن المؤسسات في أدنى درجات تجليها، ولأن القاعدة تقضي أن تبدأ الدراسة، مهما كانت، بتفحص الأبسط وصولا إلى تحليل العقد الذي تشكل دراسة الأبسط رافدا إيجابيا له.

هذا السبب الأخير الذي يدفع نحو الاهتمام بالمجتمعات البدائية كان يتخذ أهمية متزايدة بمقدار ما

كان ينمو ذلك الفرع الذي اصطلح على تسميته بالإناسة الوظيفية الراهنة. إذ كلما كان يتبين أن مهنة الإناسة المجتمعية تقوم على دراسة المؤسسات المجتمعية بوصفها أجزاء مترابطة من السساتيم المجتمعية، كلما كان يتضح أن من اللازم دراسة هذه المجتمعات ذات البنى الشديدة البساطة، وذات الثقافات البالغة التجانس، والتي يسع المرء دراستها ككل، قبل أن ينصرف إلى تحليل المجتمعات المتحضرة التي هي أشد تعقيدا، وبالتالي أكثر استعصاء على الإحاطة بها.

من ناحية ثانية برهنت التجربة أن من السهل معاينة الشعوب التي تختلف ثقافتها اختلافا كليا عن ثقافاتنا، نظرا لأن غرابة أسلوب معيشتها وخصوصيات هذا الأسلوب تتضح لنا بصورة مباشرة وبديهية، مما يساعد التفسير والتعليل على الاستفادة من قسط أكبر من الموضوعية.

وثمة سبب حاسم آخر لدراسة المجتمعات البدانية في الوقت الراهن، وهو أنها تتحول بسرعة كبيرة بحيث يتوجب علينا دراستها الآن قبل فوات الأوان.

أ.إيفنز– برتشارد

الأناسة المجتمعية. ديانة البدائيين في نظريات الأناسين

ترجمة حسن قبيسي

دار الحداثة، ط1، 1986، ص 14–16.

أ–فهم النص

1–تفكيك النص

–لا يفهم من كلمة بدائي أن المجتمعات المسماة بهذا الاسم هي أقدم من المجتمعات الغربية وأنها أدنى منها. فالمعلومات حول هذه المجتمعات تشير إلى أن تاريخها مساو لتاريخ المجتمعات الغربية ورغم أنها لا تتمتع بدرجة من التطور على قد تطور المجتمعات الغربية فإنها تنم في بعض الميادين عن تطور متقدم على هذه المجتمعات الخيرة.

– يترتب عن ذلك أن الاستعمال كلمة بدائي للإشارة إلى تلك المجتمعات اختيار سيء ولكن الكلمة شاعت في اللغة وذاعت وصار من الصعب استبدالها بكلمة أخرى.

– مدلول كلمة بدائي عند الأنتروبولوجيين تشير إلى: المجتمعات قليلة العدد أولا، ومحدودية الرقعة الجغرافية

التي تعيش فيها ثانيا، وثالثا صلاتها الخارجية مع مجتمعات أخرى محدودة. ورابعا تمتلك تكنولوجيا وبنى اقتصادية بسيطة تتميز بوظائف مجتمعية قليلة التخصص. وخامسا تغيب فيها الأدبيات المكتوبة ومن ثم الافتقار لأنظمة الفن والعلم والإلهيات.

– ثمة أسباب تجعل من دراسة هذه المجتمعات أمرًا ضروريا، أولاها أن هذه المجتمعات جلبت منذ فترة طويلة من يهتمون بالمؤسسات المجتمعية وهؤلاء يتمثلون أولا في الفلاسفة الذين تمثل بالنسبة لهم مثالا عن حالة المجتمع الطبيعي الذي سبق حالة المجتمع المدني وهو هنا يشير إلى روسو الذي افترض أن حالة الطبيعة سابقة على حالة الحكم المدني وظهور الدولة.

ومنذ القرن التاسع عشر هذه المجتمعات البدائية اهتم بها الأنتروبولوجيون الأوائل أمثال مورغان وسامرمان وباخوفن وغيرهم الذين كانوا يبحثون في أصول المؤسسات والمجتمعات البدائية تقدم لهم مؤشرات هامة تساعدهم على تفسير نشأة المؤسسات وأصولها كأصل الأسرة وأصل القانون وأصل الدولة...

–ثم إن هذه المؤسسات تمثل للأنتروبولوجيين المثال الحي عن المؤسسات في بساطتها، والمنهج العلمي يقتضي تفحص الأبسط وصولا إلى تحليل الأعقد.

–الاهتمام بالمجتمعات البدائية ازداد مع ظهور الوظيفية التي تدرس المجتمع في ترابط أنظمته وتجانس ثقافته وهو ما يسهل الدراسة.

–سهولة معانية هذه المجتمعات لأنها مختلفة وغريبة وهذا ما يعطي التفسير والتعليل قدرا من الموضوعية.

–سبب حاسم آخر يدعو إلى دراسة المجتمعات البدائية هو تحولها السريع بفعل الحداثة ولذلك يجب دراستها قبل فوات الأوان.

وهكذا فإن هناك خصائص تميز المجتمعات البدائية وأسباب تدعو إلى دراستها أنتروبولوجيا.

2–الكلمات المفتاحية: المجتمعات البدائية، الأنتروبولوجيا.

3–الفكرة العامة: مدلول كلمة بدائي عند الأنتروبولوجيين المختلف عن المدلول الشائع والسلبي. والأسباب الداعية إلى دراسة المجتمعات البدائية أنتروبولوجيا متعددة.

4–الإشكال: ما المقصود بكلمة بدائي في الأنتروبولوجيا؟ ولماذا ينبغي دراسة المجتمعات البدائية أنتروبولوجيا؟

ب–المقالة

1)–لا شك أن كل علم من العلوم يتناول موضوعا معينا يدرسه بمنهج خاص، وهذا يصدق على الأنتروبولوجيا التي لم تتشكل كعلم أكاديمي إلا مع النصف الثاني في القرن التاسع عشر، متخذة المجتمعات البدائية موضوعا لها. ولا شك أن كلمة بدائي توحي لأول وهلة بمدلول سلبي. فهل هذا هو معناها لدى الأنتروبولوجيين؟ ولماذا ينبغي للأنتروبولوجيا أن تدرس المجتمعات البدائية؟

2)–مدلول كلمة بدائي عند الأنتروبولوجيين ليس هو المدلول السلبي الشائع الذي توحي به الكلمة لأول وهلة، ثم إن هناك عدة أسباب تدعو لدراسة المجتمعات البدائية أنتروبولوجيا.

3)–بالنسبة لمدلول كلمة بدائي فلا يفهم منها أن المجتمعات البدائية هي أقدم من المجتمعات الغربية وأدنها أدنى درجة منها. فهي لا تعني القدم ولا الدونية كما هو شائع. ذلك أن المعلومات حول هذه المجتمعات تشير إلى أن تاريخها مساو لتاريخ المجتمعات الغربية، ورغم أنها لا تتمتع بدرجة من التطور على قدر تطور هذه المجتمعات الأخيرة فإنها تنم في بعض الميادين عن تطور متقدم على هذه المجتمعات.

وترتب عن ذلك أن استعمال كلمة بدائي لإشارة إلى تلك المجتمعات اختيار سيء من قبل العلماء ولكن الكلمة شاعت وذاعت في اللغة إلى درجة صار من الصعب استبدالها بكلمة أخرى لا تحمل تلك الشحنة الدلالية التي تحملها كلمة بدائي.

ومدلول كلمة بدائي عند الأنتروبولوجيين يشير إلى أن المجتمعات البدائية تتميز بكونها: أولا إنها مجتمعات قليلة العدد، وثانيا إنها تعيش في رقعة جغرافية محدودة، وثالثا صلاتها الخارجية مع مجتمعات أخرى محدودة أيضا. ورابعا إنها تمتلك تكنولوجيا وبنى اقتصادية بسيطة تتميز بوظائف اجتماعية قليلة التخصص. وخامسا يغيب فيها الأدبيات المكتوبة ومن ثم الافتقار لأنظمة الفن والعلم والإلهيات.

وأما السباب التي تجعل من الضروري دراستها فهي علمية ومنهجية. أولا لأن هذه المجتمعات جلبت منذ فترة طويلة الفلاسفة والأنتروبولوجيين الذين اهتموا بالمؤسسات المجتمعية. فالفلاسفة في القرن الثامن عشر مثلث تلك المجتمعات بالنسبة لهم مثالا حيا عن حالة المجتمع الطبيعي الذي سبق حالة المجتمع المدني وظهور الدولة وهذا ما قال به جان جاك روسو.

ومنذ القرن التاسع عشر نالت هذه المجتمعات اهتمام الأنتروبولوجيين أمثال مورغان وسامر مين وباخوفن وغيرهم الذين بحثوا في أصول المؤسسات. والمجتمعات البدائية تقدم لهم مؤشرات هامة تساعدهم

على تفسير نشأة المؤسسات وأصولها كأصل الأسرة وأصل القانون وأصل الدولة...

وثمة سبب منهجي هو أن هذه المجتمعات تمثل بالنسبة للأنتروبولوجيين المثال الحي عن المؤسسات في بساطتها، والمنهج العلمي تقتضي تفحص الأبسط وصولا إلى تحليل الأعقد.

وسبب منهجي آخر دعاهم إلى دراسة هذه المجتمعات ازداد مع ظهور المدرسة الوظيفية التي تدرس المجتمع في ترابط أنظمته وتجانس ثقافته وهو ما يوفره هذه المجتمعات وبالتالي تسهل الدراسة.

وثمة سبب منهجي ثالث هو أن هذه المجتمعات مختلفة وغريبة وهذا ما يعطي التفسير والتعليل قدرًا من الموضوعية. أي أنها تمثل الآخر المختلف. وهذه الغيرية الخارجية ضرورية من الناحية المنهجية.

وهناك سبب أخير حاسم يدعو إلى دراسة المجتمعات البدائية هو أنها تتحول بسرعة كبيرة نتيجة عملية التحديث وهي بالتالي معرضة للزوال والدخول في الحداثة. ولذلك ينبغي دراستها قبل فوات الأوان.

4)-لكن هل المدلول الذي ذكره إيفانز- بريتشارد المتعلق بكلمة بدائي لدى الأنتروبولوجيين هو الحقيقة المقصودة فعلا؟ وهل الأسباب الداعية إلى دراسة المجتمعات البدائية علمية وموضوعية؟ وما مستقبل الأنتروبولوجيا إذا زالت المجتمعات البدائية؟

في الواقع شكل اكتشاف الآخر المختلف من قبل الغربيين لحظة حاسمة في مسار تاريخ الأنتروبولوجيا فهذه الغيرية الخارجية مكنت رواد هذا العلم من الاحتكاك بشعوب ليست هي الشعوب المتوحشة كما كان الاعتقاد سابقا في قرون سابقة ولكنها البدائية هذه المرة.

وفي مقال لروبير ريدفيلد بعنوان " المجتمع البدائي" يحاول أن يجمل لنا خصائص هذا المجتمع. فهو ينطلق من مسلمة أساسية هي أن ثمة خصائص أو سمات مشتركة تميز المجتمع البدائي عن المجتمع الحضري المعاصر. وهذه السمات تقدم المجتمعات البدائية كنمط يتعارض مع المجتمع الحضري المعاصر. وطبعا هذا النمط مثالي إذ لا يتطابق معه تمام المطابقة أي مجتمع في الواقع. بمعنى أن المجتمعات البدائية تتفاوت في قربها أو بعدها عن هذا النمط. وبناء هذا النمط يتوقف على المعلومات التي لدى الأنتروبولوجيين عن المجتمعات القبلية والزراعية وتحديدا لمجتمع البدائي يتم باستحضار خصائص المدنية المعاصرة منطقيا[1].

ومن بين الأنتروبولوجيين الذين اهتموا بتحديد خصائص المجتمعات البدائية نذكر جولدنوايزر

[1]-Robert Redfield, « **La société dite « primitive »** », dans L'étude de la société, Section 3 : « Société traditionnelle et société technologique », Les presses de l'université Laval, Québec, 1968, 59-60.

Golbenweiser الذي أكد أن هذه المجتمعات صغيرة ومعزولة وأمية وتعكس العادات المحلية، وأنها متجانسة تقريبا من حيث المعارف التي يمتلكها أعضاؤها، ومن حيث مواقفهم والوظائف التي يؤدونها. وإن الفرد لا يتميز فيها بصفته فردًا وأن المعرفة المعطاة فيها لا تمثل نسقا ظاهرًا. ونجد مين Maine أيضا أقام تصنيفه على أساس أن هناك مجتمعا مبنيا على علاقات القرابة ومجتمعا آخر مبني على المنطقة، بين مجتمع قائم على المركز الاجتماعي ومجتمع آخر قائم على عقد ما.

وتونيز وTonnies ميز بين Gemeinschaft و Geseelschaft بمعنى هذا النوع من المجتمع حيث العلاقات تخلق من غير أن تثير انتباه أحد، فقط أن الناس يعيشون مع بعض. والنوع الآخر من المجتمع حيث تبنى العلاقات عمدا بواسطة أفراد أحرار في فعل ذلك، بفضل توافق منجز من أجل تحقيق أهداف معروفة. يمكن هنا أن تقترب من التمييز الذي أقامه دوركايم بين التضامن الاجتماعي الذي يحدثه تقاسم بعض المواقف والعواطف . وذلك الذي ينتج عن الخدمة التي يقدمها أعضاء الجماعة بواسطة أنشطتهم المتكاملة. في القسم الاجتماعي حيث الرابطة تخلق ما يمكن تسميته التضامن الآلي يأخذ القانون شكلا قمعيا. بينما في الجسم الاجتماعي حيث الرابط يخلق تضامنا عضويا، يميل القانون إلى إعادة النظام.

بالنسبة لسومر W. G. Summer الفكرة التي يجب أن نكونها عن المجتمع البدائي هي أنه جماعات صغيرة متوزعة على منطقة معينة. إن المجتمع البدائي مجتمع محدود، إنه لا يتكون من الكثير من الناس إلى حد لا يتعاونون فيه. هؤلاء الناس يعيشون مجتمعين سنوات طويلة. وهذا المجتمع معزول فالأشخاص الذين يكونونه قل ما يتواصلون مع الغرباء. بحيث يمكن القول أن المجتمع البدائي يتكون من أشخاص ليس لهم علاقات مع أناس من الخارج.

وغياب الكتب يمثل أحد أسباب عزلة المجتمع البدائي الذي لا يتواصل إلا شفاهيا. لهذا السبب فإن العلاقة التي يمكن تصورها هي تلك التي تبنى بين الجيران ضمن المجتمع المحدود. البدائي لا يتصل مع الأفكار وتجربة الماضي التي تنقلها الكتب سواء تعلق الأمر بتلك التي تخص شعوبا أخرى أو تلك التي تخص أجداده. ولذلك ينعدم في المجتمع البدائي اللاهوت والعلم إذا استثنيْنا الأدوات والأشياء الأخرى المصنوعة. ليس للبدائيين وسيلة يضيفونها إلى تجاربهم إلا تلك الحكمة التي يكتسبها الأشخاص نتيجة كبرهم في السن.

والأفراد الذين يعيشون في مجتمع بدائي واحد يتشابهون كثيرا. في هذا المجتمع ما يعرفه الواحد ويعتقده

يعرفه ويعتقده الجميع. فعاداتهم وتقاليدهم واحدة. أعضاء المجتمع البدائي لديهم الشعور القوي بالتضامن، وعليه يمكن تعريفه بأنه مجتمع محدود ومعزول وأمي ومتجانس وأنه يمتلك روحا قوية للتضامن.

وفي المجتمع البدائي لا يوجد تقريبا تقسيم للعمل. فما يفعله هذا الفرد يفعله فرد آخر. في هذا المجتمع الأدوات والتقنيات تكون ملكية للجميع. والتقسيم الوحيد الموجود هو بين الجنسين. فالجميع يقوم بنفس الأعمال (الصيد، وصناعة السهام وأشياء أخرى) بحيث أن الرجال يهتمون بنفس الأشياء ويمتلكون خبرة الحياة ذاتها.

المجتمع البدائي هو جماعة مستقلة عن الجماعات الأخرى على المستوى الاقتصادي، فأعضاؤه ينتجون ما يستهلكون ويستهلكون ما ينتجون.

حقوق وواجبات الأفراد في المجتمع البدائي ليست محددة باتفاق خاص، بل تنتج عن مركز الفرد باعتباره ينتمي لهذا الجنس أو ذاك، لفئة العمر هذه أو تلك، أو للجماعة التي تشغل مكانة داخل نظام العلاقات الاجتماعية التقليدية. فمركز الفرد يمكن اعتباره محددا منذ الولادة. هذا المركز يتغير مع العمر ولكن بطريقة منظمة مسبقا بطبيعة الجماعة ذاتها التي ينتمي إليها.

التشريع لا يدخل ضمن قانون المجتمع البدائي، الذي يكون فيه السلوك اتفاقيا. العرف هو الذي يقرر الحقوق والواجبات للأفراد. في المجتمع البدائي تتعدد صور الأبوة، فعلاوة على الأبوة الدموية هناك أبوة الثقافة وأشكالا أخرى من الأبوة الرمزية. وهذا يضاعف روابط القرابة.

في المجتمع البدائي يلعب المقدس دورًا كبيرا حيث يجري التمييز بين الأشياء المقدسة والأشياء غير المقدسة والأولى تحاط بالتابوهات. والمجتمع البدائي يعطي أهمية كبيرة للسحر، بحيث يجري الخلط بين الفعل التقني والفعل السحري.

بالنسبة لعقلية البدائي فإن ترابط الأفكار لديه ذو نظام شخصي وعاطفي وليس مجردًا أو محددًا وفق العلاقة السبب والنتيجة. وبالنسبة للاقتصاد فلا يوجد في المجتمع البدائي اقتصاد السوق ولا نقودا ولا أي شيء يصلح كعامل مشترك لتقييم الأشياء. وتوزيع الأشياء والخدمات يقوم على أساس العلاقات الاتفاقية والشخصية المتعلقة بالمركز التي تقوم عليها بنية المجتمع.

وهكذا فإن نمط المجتمع المسمى بدائي يقوم على مجموعة من الخصائص تمس مختلف مناحي الحياة تجعل من هذا المجتمع يقف على النقيض من المجتمع المتحضر.

ولكن هل تسميه المجتمع الذي أتينا على وصفه بالمجتمع البدائي بريئة؟

في الواقع ينبغي أن نعود إلى الظروف التي تم فيها إطلاق كلمة بدائي على تلك المجتمعات البسيطة. فلا شك أن الغرب في هذه الفترة أي خلال القرن التاسع عشر كان قد وصل إلى درجة كبيرة من التطور بفعل الثورة الصناعية والثورة السياسية، ولذلك فقد ولد مذهب التطور الاجتماعي أو التطورية الاجتماعية مقرونا بالتطور البيولوجي الذي أرساه داروين. ولذلك فإن التسمية بدائي كانت تعبر عن هذا الفارق الهائل بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الأخرى.

وثمة شيء أساسي ينبغي الإشارة إليه وهو أن الأنتروبولوجيا إذا كانت قد فضلت في البداية الغيرية الخارجية (البدائي) فإنها لم تلبث أن التفتت إلى الغيرية الداخلية. فالرجل الغربي صار يدرس ذاته أيضا وهذا ما يصطلح عليه الأنتروبولوجيا داخل الديار(Anthropologie at home) أو أنتروبولوجيا القريب.

ولكن ما هو مستقبل الأنتروبولوجيا في ظل زوال المجتمعات البدائية؟ في إن مصير الأنتروبولوجيا ليس متوقفا على بقاء هذه المجتمعات ذلك أنها تدرس اليوم كل المجتمعات بما فيها المجتمعات الغربية. كما تدرس المجتمعات البدائية أثناء تحولها.

5)- وهكذا فإن مفهوم كلمة بدائي عند الأنتروبولوجيين يخرج عن المعنى الشائع الذي يحيل إلى الدونية فالمجتمعات البدائية تتميز بمجموعة من الخصائص فضلت الأنتروبولوجيا دراستها لأسباب علمية ومنهجية ولكن مع ذلك يظل المفهوم يحمل سحنة سلبية.